قبسات من فكر «فيلسوف العصر»

مالك بن نبي.. خطوة لفهم نكبة الغفلة في الثقافة العربية

الكتاب: في مهب المعركة
تأليف: مالك بن نبي
تقديم: محمود محمد شاكر
الناشر: دار الفكر المعاصر
المصدر: موقع مالك بن نبي
قراءة: محمد العبدة

إذا عُــدَّ المفكرون من المسلمين في هذا العصر فإن مالك بن نبي هو من هذه القلة الذين ينطبق عليهم هذا الوصف؛ فالمفكر هو الذي يدرس ويتأمل ويقارن ويحلل المشكلة إلى أجزائها، ثم ينسق ويركب ويجتهد في إيجاد الحلول.

وقد ترددت كثيراً قبل الكتابة عن مالك بن نبي؛ لا لأنه عميق الغور، غوَّاص في البحث والتنقيب، أو لأن تتبع آرائه وأفكاره يحتاج إلى جهد، بل لأنه يطرح أفكاراً وآراءً لا تتناسب مع عمق تفكيره، يقف الإنسان أمامها حائراً: من أين جاءته؛ وما هي الخلفية الثقافية التي جعلته يتبنى هذا الرأي أو ذاك؛ وهل هو مؤيد أم معارض؟ وقد كان ذلك التردد وإعادة القراءة مرات ومرات حتى لا نظلمه، وليستبين الحق وتتضح الصورة، وتحل الإشكالات.

إن الكتابة عن مالك بن نبي ضرورية للأجيال التي يجب عليها أن تتعرف على ما كتبه أصحاب الخبرة والتجربة في مجال الصراع الفكري المحتدم بين أوربا المستعمرة والعالم الإسلامي منذ نهاية القرن الثامن عشر، فلم يعد من المجدي طرح الحلول العامة والعائمة ولابد من الدخول في التفاصيل، ومعرفة أسباب الفشل وأسباب النهضة، ولكن العجب لا ينقضي عندما ندرك أننا في كثير من الأحيان لا نستفيد مما كتبه السابقون لنا الذين تصدوا للإصلاح في أوائل هذا القرن.

يقول الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر – في تقديمه لكتاب «في مهب المعركة» مصوراً هذه الظاهرة: «فإذا نحن نرى أنفسنا في ضوء ما كتب قديماً، كأننا لم نتقدم خطوة في فهم البلاء الذي ينزل بنا ولا يزال ينزل، وأشد النكبات التي يصاب بها البشر نكبة الغفلة...».

غلاف الكتاب

نبذة عن حياته

وُلد مالك بن نبي في مدينة قسنطينة في الجزائر عام 1905، ونشأ في أسرة فقيرة؛ لأن جده لأبيه هاجر إلى طرابُلس الغرب احتجاجاً على الاستعمار الفرنسي وحمل معه كل أملاك العائلة، هذا الميلاد جعله يتصل بالماضي عن طريق من بقي حياً من شهوده.

انتقل والده إلى «تبسة» فعاش فيها طفولته وكانت هذه المدينة الصغيرة بعيدة نوعاً ما عن «الحضور الفرنسي» وذلك لاحتكاكها بالقبائل المجاورة؛ فحفظها الطابع البدوي عن الاختلاط مع الفرنسيين، وفي «تبسة» كان يدرس في الصباح العربية والقرآن ثم يذهب في الساعة الثامنة إلى المدرسة الحكومية الفرنسية، وفي المرحلة التكميلية كان يتابع دروس العربية والدين، وكانت المدرسة الفرنسية تشجعه على المطالعة عن طريق إعارة الكتب.

تعرَّف على تلاميذ ابن باديس من الشباب، وشعر أنه – وإياهم – على خط فكري واحد، وكان يقرأ «الشهاب» و«المنتقد» قبلها ولكنه لم يتصل بالشيخ ابن باديس ولا تتلمذ عليه، وفي «تبسة» حيث تعيش أسرته لم يتتلمذ أو يؤيد تأييداً قوياً الشيخ العربي التبسي، وكأن هناك حاجزاً نفسياً بينه وبين المشايخ، ويعترف بعد ربع قرن: «حينما تفحصت شعوري حول هذا الموضوع تبين لي أن السبب يكمن في مجموعة من الأحكام الاجتماعية المسبقة، وفي تنشئة غير كافية في الروح الإسلامي»، ويتابع الحديث عن الأسباب الاجتماعية فأحكامي المسبقة ربما أورثتنيها طفولتي في عائلة فقيرة في قسنطينة، زرعت لا شعورياً في نفسي نوعاً من الغيرة والحسد حيال العائلات الكبيرة التي كان الشيخ العربي ينتمي إلى واحدة منها»، وكنت أعتقد أنني أقرب إلى الإسلام بالبقاء قريباً من البدوي أكثر من البلدي الرجل الذي يحيط به وسط متحضر، وكان الشيخ العقبي يبدو في ناظري بدوياً، بينما يبدو الشيخ ابن باديس بلدياً، ومن هنا تبينت لنا أسباب جفائه لزعماء جمعية العلماء وهو شاب، أما عندما نضج فكرياً فسيكون له موقف مبني على أسس عنده سنتكلم عنها إن شاء الله.

بعد الانتهاء من الثانوية عمل متطوعاً في محكمة «تبسة» وهناك تعرف – من خلال تجوال أعضاء المحكمة في الريف – على رجل الفطرة الذي يستضيف أعضاء المحكمة رغم أنهم حكموا عليه بالضرائب والغرامات، ثم عمل موظفاً في محكمة «أفلو» التي تقع جنوب وهران في غرب الجزائر، وهناك أيضاً تعرف على الكرم العربي والفطرة الصادقة: «فالناس في المدن لا يستطيعون فهم هذه العقلية أو ذاك النبل في عروق البدوي»، وتعرف على فضائل الشعب الجزائري قبل أن يفسده الاستعمار، ثم انتقل للعمل في محكمة «شاتودان» ولم يطق معاملة موظفيها؛ فاستقال وتوجه إلى فرنسا وذلك عام 1930 في محاولة للانتساب إلى معهد الدراسات الشرقية، ولكن طلبه رُفض؛ لأن الدخول لهذا المعهد – كما يقول هو – لا يخضع لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي.

انتسب إلى مدرسة اللاسلكي ودرس الكهرباء والميكانيكا، وهذه الدراسة أعطته بُعداً آخر يقول عنه: «فتح لي عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى المقياس الدقيق للكم والكيف، ويتسم فيه الفرد–أول ما يتسم– بمَيزات الضبط والملاحظة» ولكن دخوله مع العمل الطلابي المغربي وتعرفه على صديقه «حمودة بن الساعي» بدأ يغير من اتجاهه العلمي إلى التعمق في الدراسات الاجتماعية.

تخرج مهندساً كهربائياً عام 1935 وبدأ رحلة شاقة في البحث عن عمل في البلاد العربية وغيرها، وكانت الأبواب توصد في وجهه دائماً وسبب ذلك في رأيه هو أنه أراد تمزيق شبكة الاستعمار ولم يدرِ أن سمك القرلق «الاستعمار» كان له بالمرصاد. زار الجزائر في هذه الفترة، ولاحظ وقوع الناس في حُمى الانتخابات والدجل السياسي بعد المؤتمر الجزائري.

عاد إلى فرنسا في مطلع الحرب العالمية الثانية مودعاً الجزائر بهذه العبارة: «يا أرضاً عقوقاً ! تطعمين الأجنبي وتتركين أبناءك للجوع، إنني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرة!»، وبقي في فرنسا حتى عام 1956 أصدر فيها باللغة الفرنسية: «الظاهرة القرآنية»، «شروط النهضة»، «وجهة العالم الإسلامي»، «الفكرة الإفريقية الآسيوية». زار مصر عام 1956 وبقي فيها حتى عام 1963، وكان له في مصر تلاميذ وأصدقاء، وزار خلالها سورية ولبنان ألقى فيها المحاضرات حول موضوع «مشكلات الحضارة»، وفي القاهرة أصدر: «حديث في البناء الجديد»، «مشكلة الثقافة»، في مهب المعركة، «تأملات في المجتمع العربي».

عاد إلى الجزائر عام 1963 حيث عُين مديراً عاماً للتعليم العالي وأصدر في الجزائر: «آفاق جزائرية»، «يوميات شاهد للقرن»، «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، «المسلم في عالم الاقتصاد».

استقال من منصبه عام 1967 وتفرغ للعمل الفكري.

توفي في 1973/10/31 في الجزائر – رحمه الله وغفر له –.

شخصيته

يجتمع في مالك بن نبي خطان رافقاه طوال حياته، فهو شخصية عاطفية، خيالية أحياناً، يفكر بأحلام الفلاسفة ويهيم بالتجريد.

يقول عن نفسه: «أنا شديد التأثر بالحدث، وأتلقى صدمته بكل مجامعي وبانفعالية تستطيع أن تنتزع مني دموع الحزن حين يثير الحدث الحبور من حيث المبدأ» وقد بكى عندما اندحر الجيش الفرنسي أمام ألمانيا عام 1940 مع أنه يكره الاستعمار الفرنسي، ويعلق هو على هذا التصرف: «رأيت في ذاتي عنصراً آخر كشف كل التعقيد في ضمير مسلم». ولم يوضح ما هو هذا العنصر الآخر ولكن يبدو لي أنه عدم التوازن بين القيم الأخلاقية وأيها يصلح لتطبيقه على الحدث، وعندما سمع حديث والدته وذكرياتها عن الحج لم يستطع حبس دموعه فكان يتظاهر بالعطش ليخرج إلى الشرفة فيطلق العنان للدمع.

هذه العاطفة أنتجت له شخصية حالمة أحياناً، فعندما يسمع ويقرأ عن شاعر مثل «طاغور» تتفتح أمامه الأحلام عن الشرق وأن الإنقاذ ربما يأتي من روحانية الهند كما يسميها، وعندما يسمع بأنباء الخلاف بين الملك عبد العزيز آل سعود وإمام اليمن يكتب رسالة إلى سفارة اليابان يدعو حكومتها للتدخل باسم التضامن الآسيوي لمساعدة ابن سعود حتى لا تتمزق الجزيرة العربية، وطبعاً لم يستجب «الميكادو» لطلبه!

وفي الجانب الآخر نجد شخصية مالك الناقد المحلل الذي يمتلك القدرة الفائقة على النفاذ لأعماق المشكلة وبيان أسبابها، من خلال النظرة العلمية الصارمة، ومن خلال اطلاع واسع على الثقافة الغربية وكيف تنشأ الحضارات مع معرفة بواقع المجتمعات الإسلامية من خلال معرفته الشخصية بالمجتمع الجزائري، وهو في مقارناته وتحليلاته يشبه سلفه المؤرخ ابن خلدون، حيث تلتقط الذاكرة كل جزئية وكل حادثة ثم يبدأ التحليل والمقارنة ثم يخرج بالنتائج التي يرتضيها، يقول عن سكان «أفلو» عندما عمل عندهم كمساعد في المحكمة: «فملكية الإنسان لأرض ما تخلق في نفسه غرائز اجتماعية قد سلم منها الراعي، ففي دعوى أمام القضاء في «تبسة» يستطيع كل فريق أن يقدم عشرة شهود زور بالمجان، وشهود كل واحد من الطرفين سيحلفان أنهما يقولان الحقيقة، أما في «أفلو» فقد لاحظت الرجل يرفض غالباً أن يحلف ولو كان ذلك لدعم حقه الواضح».

وعندما أراد القيام بعمل علمي مشترك مع صديقه «ابن الساعي» فشلت المحاولة؛ فعلق قائلاً: «ولم أكن أعلم أن العمل الجماعي بما يفرض من تبعات إنما هو من المقومات التي فقدها المجتمع الإسلامي ثم لم يسترجعها بعد خصوصاً بين مثقفيه».

هذان الخطان استمرا في حياة ابن نبي، فالعاطفة التي تجمح إلى الخيال أحياناً جعلته يعقد في الخمسينات آمالاً كباراً على مؤتمر باندونغ وظن أنه سيحل مشكلة العالم الثالث، ومن رفات «غاندي» سينطلق يوماً انتصار اللاعنف ونشيد السلم العالمي. كما استمر النقد التحليلي للمجتمع الإسلامي ومواطن الضعف فيه فتكلم عن الذين يظنون أن الإصلاح يبدأ من «علم الكلام» كالشيخ محمد عبده، يقول: «إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده ونملأ به نفسه».

ويكتشف مالك جرثومة المرض، فالذين تركوا الطواف حول القبور وأخذ البركات من الدرويش لم يستطيعوا الاستمرار فتحولوا إلى الطواف حول وثن جديد وهو وثن الأحزاب السياسية والانتخابات، ولأن العمائم أسلمت القيادة إلى «المطربشين»؛ لأن العلماء لم يكونوا على جانب من الخبرة بوسائل الاستعمار في مجال الصراع الفكري حتى يفطنوا إلى هذا الانحراف «الغوغائية السياسية».

العوامل المؤثرة في ثقافته

وُلد مالك بن نبي في عصر سمع فيه من جدته لأمه قصص الاحتلال الفرنسي للجزائر، وعاش مأساة بلد يخطط الاستعمار لشل فاعليته، ومن ثم لتحويله إلى فريسة سهلة الالتهام، عاشها مالك يوماً بيوم في المدرسة الفرنسية حيث لا يسمح «لابن البلد» إكمال الدراسة الثانوية التي تؤهله للدراسات الجامعية، وعاشها في تحول المجتمع عن فطرته وكيف ساد الصعاليك بمعونة الإدارة الفرنسية، وكيف أصبحت العائلات العريقة فقيرة، ذليلة بسبب الاستيلاء على أراضيها، وكان اليهود هم الواسطة لانتقال الملكية من أبناء البلاد إلى أبناء المستعمر؛ فاليهودي دائماً كان يقرض بفائدة 60 في المائة، وعندما درس في فرنسا وعاش مع الجالية الجزائرية رأى الاستعمار من زواياه المختلفة، وشعر بخبث الأساليب التي يقوم بها لتمزيق العالم الإسلامي.

القراءات الغزيرة المتنوعة، فقد بدأ بالقراءة منذ أن كان صغيراً في الابتدائية، وقرأ كتب علم النفس والاجتماع وهو لا يزال في المرحلة الثانوية، وكان يقرأ كل الصحف التي تصل إلى قسنطينة أو تبسة، ولا شك أن هذا الاطلاع الواسع على الثقافة الغربية هو في جانب منه على حساب الثقافة الإسلامية وكان له أثر عليه أيضاً، فكثرة قراءاته لأعمال الفلاسفة جعلته يعتبر عصر الفارابي عند المسلمين هو عصر خلق الأفكار مع أن الفارابي وأمثاله لم يقدموا شيئاً يذكر للحضارة الإسلامية، وكانت نغمة «الإنسانية» و«العالمية» سائدة عند الفلاسفة الغربيين، ونجد مالك يكررها فيتكلم عن حضارة اليوم التي تسير نحو الشمول والعالمية ويستعمل أحياناً عباراتهم التي هي نتيجة انفصام عندهم بين الدين والعلم مثل قوله: «إن الطبيعة توجد النوع...» أو وهبته الطبيعة.

ثقافته الإسلامية: يعترف مالك بأن الذي كان يرده عن الغلو في هذا الاتجاه «القراءات الكثيرة للفكر الغربي» هو ما كان يتلقاه من دروس في التوحيد والفقه، وقراءاته للكتب التي تأتي من المشرق العربي مثل: «الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق» لأحمد رضا، و«رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده، و«طبائع الاستبداد» للكواكبي، والمجلات الإسلامية الجزائرية مثل «الشهاب» التي يصدرها الشيخ ابن باديس، ولا شك أن ثقافته الشرعية ضعيفة ولكن عنده اطلاع على التاريخ الإسلامي وقدرة على فهم الآيات والأحاديث التي تتعلق بسنة التغيير الاجتماعي وبسبب عمق تفكيره وتحرّقه على العالم الإسلامي كان يرى أن بذرة عودة الوعي للأمة الإسلامية هي في حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي يعتبرها امتداداً لما قام به ابن تيمية في التجديد، ولنفس السبب أيد جمعية العلماء في الجزائر وكان يعقد الأمل عليهم في الإصلاح وإن اختلف معهم بعدئذ، ولبُعده عن المشرق ولضعف ثقافته الشرعية كان يمجّد جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ويرى أن الأول هو مصلح الشرق؛ فثقافته الإسلامية خليط من آراء مدرسة الأفغاني ومحمد عبده ومن فهمه لآيات القرآن وسنن التغيير، وأنه لابد من الرجوع إلى طريقة القرآن والسنة في رفع الناس إلى مستوى الروح كما يعبر هو، والحقيقة أنه يجمع أشياء متناقضة وإن بدت منسجمة بالنسبة له.

ومن المؤثرات الواضحة في شخصيته ما عاناه من الفقر الشديد في طفولته، وحياة النصَب والتعب التي عاشها في شبابه بحثاً عن العمل، سواء في الجزائر أو فرنسا، فقد عمل بعد تخرجه من الثانوية في مصنع للأسمنت في مدينة «ليون» بفرنسا، فكان يحمل الأكياس على ظهره، ومرة باع بعض ملابسه حتى يوفر وجبة غداء، وبعد تخرجه من الهندسة طرق أبواب العمل في الدول العربية والإسلامية ولكن دون جدوى.

هذه الأوضاع النفسية جعلته يكره – وهو صغير – الدور المترفة التي كانت تفضح أمام ناظريه بؤس أقاربه، وأحكامه المسبقة كانت بسبب العيش في عائلة فقيرة زرعت لاشعورياً في نفسه من الغيرة والحسد حيال العائلات الكبيرة، وكان تعجبه مطالعة صحيفة «الإقدام» التي يصدرها الأمير خالد الجزائري والتي كانت تركز على موضوع الفلاح الجزائري وبؤسه.

هذا ما يفسر لنا ميله للدول التي بدأت بتطبيق الاشتراكية كالجمهورية العربية المتحدة والجزائر بعد استقلالها، وبتأثير من هذه الدول كان يظن أن الاتحاد السوفييتي ليس عنده مُناخ استعماري وهو صديق للشعوب!

في مجموعة «الدخول... في خبر كان»

صورة الوطن في علاقته بالذات

الكتاب: الدخول.. في خبر كان
تأليف: وديع العبيدي
الناشر: دار الأمين للنشر والتوزيع
عرض: إبراهيم الحجري *

يؤسس الشاعر وديع العبيدي تجربته الشعرية الجديدة من خلال إصداره «الدخول... في خبر كان» على التماهي في السياقات المتداخلة التي تحكم عوالم الذات في شموليتها واستبطاناتها العميقتين، سواء من خلال المتعاليات النصية المتجلية أو من خلال نغول الدوال والإحالات المتواشجة، وقد أعلنت الذات الشاعرة عن غائيتها منذ الانطلاقة عبر المؤشرات الدلالية التي صُدِّر بها منجزه هذا: فالعنوان كعتبة بؤرية لولوج ثنايا النص تستبطن، من خلال ورود فعل «كان» المحيل على الزمن الماضي، ومن خلال نقط الحذف المحيلة على امتداد الصمت وانقطاع المقول، ومن خلال مؤشر الدخول في أخبار الماضي المنصرمة، جراح الذات وهزيمها وشكواها من ذل الصمت والخنوع والردة، واستسلام حضارة أمة لفعل الدهر، وقبولها لولوج بوابة الإقبار والدمار والسهو دون أية بوادر للمقاومة والصمود والمكابدة والمجابهة.

وهكذا يصبح هذا الولوج في قبو النسيان ميْسَما دلاليا تؤشر عليه العنونة وتمهد له سبيل العبور إلى صروح النص ومتاهاته: «الدخول في خبر كان» مقولة دلالية يتخللها الحذف والصمت المرهون بواقعيته الرتيبة التي تغلق الكون، مقولة مشحونة بالدوال وفاصل قيمي بين زمنين: واحد يتمطى جانبا ويتسلل صوب الرماد وآخر ينحاز هاربا نحو لجية الاستشراف، مقولة تمتح قوتها وخصبها وثراءها من نسيج المقول التراثي المتداول بين العامة «أصبح في خبر كان» الدال على الفناء وانقطاع العلاقة مع العوالم الحالية وعدم القدرة على التواصل والاستمرار، وهي أكثر من هذا مقولة مركبة تستدعي وضعيات متعددة، لذا فهي تبقى مفتوحة على كثرة الدوال مشرعة على المضامين المحتملة، ودون شك أن تفاصيل البوح الشعري تؤطر انفتاح الدلالة هاته، والتي يفيض بها العنوان الذي يسم هذا المنجز الشعري، حيث نجد في أحد النصوص التي تتضمنها هذه المجموعة:

أمامنا
مشدودة خلفنا
تسبقنا
من دون أن ندري
نجرها في نكد..
لكنها..
من دوننا
تجري!

وبربطنا للسياق الشعري المتمظهر نصيا بالسياقات المتداخلة التي تجترها عوالم المحيط الخارجي، نلفي أن الزمن العربي المذبوح والملقى في مزابل التاريخ يؤطر هذه الوضعية ويفسرها، يفسر حالة الأمة العربية التي تمزقها الحروب وويلات التخلف، ويشرِّح تفاصيل الركود العربي واستكانة الجسد التاريخي القتيل المشدود إلى الوراء بسلاسل من حديد: فتصبح عملية السير في الزمن مستحيلة حضاريا، وينقلب الاتجاه إلى ما يوجد خارج تاريخنا، خارج مكاننا، خارج هويتنا: يضحي الدخول في العولمة بالنسبة لنا معكوسا، ففي الوقت الذي تتسارع فيه الأمم بحثا عن سر التحدي ورغبة في حجز مقام واجهة التواجد الكوني الذي يضمن الاستمرار، نفضل نحن أن نلوك تاريخنا ونبكي على الأطلال كما الجاهليين، نفضل أن ندخل، بشكل مقلوب، إلى أقبية النسيان:

هم داخلون
أو يدخلون
أو .. سيدخلون
أو .. لم يكونوا ذات حين
قل ...
ادخلوها آمنين
أو ساهمين
أو واقعين
على الوجوه
أو الجنب
أو الظهور.

يبدو، من خلال هذا التواشج بين العتبة وتفصيل القول الشعري داخل هذا المنجز، أن الذات الشاعرة تنظر إلى الوطن كهوية حضارية وكونية غير مستقلة تربطها صلات التأثير والتوتر والتأثر بعوالم عديدة لها علاقة بالآخر والحساسيات التي تحكمه، كما تنظر إليه «أي الوطن» كجزء من الذات وكصورة للكينونة الجوهرية المسلوبة التي تتربص بها مخالب الضياع والاستلاب، تنظر إليه في شمولية بعيدا عن العرقيات والوطنيات الضيقة، وفي منأى عن الحواجز والخرائط الإقليمية الضيقة، أو لنقل بعبارة أدق، إنه يستضمرها كلها دفعة واحدة، ويؤكد هذا الطرح ما ذهب إليه الدكتور يوسف عز الدين في تقديمه لهذه المجموعة الشعرية «وكانت صلته بالمجتمع في العراق واضحة، فأنت تشعر أنه شاعر من ديالي فيذكر المشاعر الإنسانية في عمق العاطفة والخيال المجنح، جمع بين الإنسانية الواسعة والأحاسيس الوطنية والجزئيات البلدانية».

فالذات الشاعرة تهجس، في أحيان كثيرة، بمشاعر الوطنية الصادقة تجاه وطن جريح، رغم البعاد والنوْي، فينفلت من صميم الانشغالات الكونية للذات دم الامتداد ليغشى صوت الوطن الذي يسكن الضمير المهزوم، فتطل الأحزان من شتى النوافذ مشرعة على مدى الأشجان وآفاق الجراح التي بحجم الأخاديد، وهذا ليس غريبا فالشرايين موصولة النبض برعاف الوطن الذي يئن تحت وطأة الآلام والتكالبات، وهوية تتمزق بأنياب بنيها المتخاذلين. وتتضخم جراحات الذات عندما يتضاعف عنت الحياة وتتوافد مصائبها وتتوالى أنكادها الواحدة تلو الأخرى «وفاة الأخ، وفاة الوالدين، ضياع مجموعة شعرية «المراثي»، البعاد عن وطن يقاسي الإعدام أمام مرأى كل العوالم...»، وتزداد عذاباتها عندما تتواطأ كل هذه المكونات مع عثاء الغربة وأحزانها:

تؤثثني الغربة
بما يقتضي من جنون
وما ينبغي
من فنون
وما أدعي
من ديون ....

عفوا، ليست الغربة الحافية، الغربة المغلّفة بالدونية والاضطهاد واليتم القاسي:

إنني الآن
مضطهد
أينما كنت
مضطهد..
أينما سرت
مضطهد بالمغاريب
مضطهد بالأعاريب
... بالهواجس
بالخوف ...

إن التجربة الإنسانية التي يستعرضها الديوان الشعري، تحفل بالصدق لأنها أوّلًا تنهل من معجم الذات الكسيرة الحبلى بالهزائم ومعاني الانهيار، وثانيا لكونها صدى لمعاناة داخلية يستعر لهيبها في الأعماق، تصطلي بها الخلايا والمسام الدفينة وتنفجر براكينها بلافا الأنين والصراخ والبكاء، فتهتبل اللغة جغرافية الجسد المنبوذ بحثا عن امتلاء نفسي يحرض هذه الذات على مقاومة لعنة المنافي السحيقة، ولعل الكتابة جسر من جسور هذا التعويض الذي يقلّم من حجم الوحشة التي يبثها لهب اليتم والفقد والتيه، أو أنها منفذ هلامي، من خلاله، تعيد الذات المشروخة لملمة أجزائها المتشققة عبر منافي قسرية أو اختيارية:

لمن أعود وقد رحلت
أي باب أطرق
والليل يصرخ في عيوني
والشوارع والأزقة...
لا أب
لا أم
لا قبلة في العنق
أو فوق الجبين
أعود منكسرا...
كما غادرتها....
أم لا أعود؟
هذا السؤال
يجرّني من ياقتي.

وبتأملنا للمضامين الشعرية الواردة عبر المنجز، نلحظ غلبة الموضوعات المترعة بالحزن، والتي تنبع من صميم التجربة القاسية التي يعيشها الشاعر بعيدا عن الوطن والأهل في غربة الليالي السود وفي احتشاد الذاكرة بصور الحرب والخسارة وعنف اللحظات، حيث يطفح الديوان الشعري بتيمات:

– المأزق السيكولوجي الذي تعيشه الذات.
– سيرة المنافي المادية والمعنوية.
– الحالة المأساوية للأمة العربية وما تترنّح فيه من خيبات.
– التشظي والتمزق اللذان تعانيهما الذات في واقع محبط مزيف.
– صورة اغتيال الوطن البعيد القريب.
– صورة صلب الهوية وإعدام الفكر والحضارة وطنيا وقوميا.

وقد سخّر الشاعر، في سبيل صهر هذه المعاني والمضامين، مجموعة من الوسائل الفنية والأساليب الجمالية: فقد التمس السطر القصير والجملة الشعرية الموجزة التي ترتكز على الإيحاء عوض التقرير، والتلميح والترميز بدل الإغراق في الغموض والتورية، كما اعتمد نقط الحذف والصمت ليشرك المتلقي في لعبة الكتابة ومتاهاتها. وتلعب التجربة الشعرية هناك كذلك على البياض كلغة مميزة تستضمر الذي لا يمكن قوله بالجهر حتى لا يتحول المكتوب إلى جنس آخر، ولو أن المنجز يتضمن بعض النصوص المفتوحة التي تتأبى على التصنيف وترفض الانتماء إلى خانة الأجناس المتعارفة، فالشاعر يصر، كما عودنا دائما، على أن تكون تجاربه مفتوحة على الجديد والجيد، مشرعة النوافذ على رياح المغايرة والتجريب، بعيدا عن الانغلاق والانسداد، لكنه يصر أيضا على أن يكون التجريب والتفرد نابعا من صميم الداخل «الجنس الشعري ذاته»، وحتى إن باعده، فهو لا ينصرف عنه، يظل تحت كرْمة البوح المعتقة، وفيًا لتوجهه الذي صمَّمه بعناية، كما أنه يصر على أن تكون لقصائده أبعاد إنسانية وجودية تهجس بأسئلة الإنسان المعاصر وتوحي بقلق الذات المبدعة وتوترها أمام تيارات الحداثة المعطوبة التي تحتقر كينونة الإنسان وآدميته.

كما أن السياق الشعري استعان بشكل كبير بالتناص، حيث نجد غالبية النصوص تحيل في أحايين كثيرة إلى تجارب غائبة وسياقات سابقة متضامة، لتتكاثف الرؤيا الشعرية وتتخصب الدلالة، إذ نجد القرآن الكريم أو بعض صداه:

قل ...
ادخلوا آمنين
أو ساهمين
أو واقفين
على الوجوه..
****
وقال اخرجوا...
وناهز إبليس فرصته للتشفي
لأماكن جهنم منهم.

كما أننا نجد عبر تفاصيل المتن ترددا لإحالات مشبعة بالرمزية، تشير إلى أحداث أو أماكن أو شخوص معروفة لدى المتلقي بكل خلفياتها، والشاعر حينما يضمِّن هذه الإحالات تجربته، فإنه لا يُبقي عليها خامدة، بل إنه يجرّدها من معناها القديم ليُحَيِّنها ويلبسها معان جديدة ورؤى مستحدثة تخرج بها عن السِّياق القديم الذي ظل لصيقا بها في مخيلة القارئ.

– التاريخ: «أشطب ملة إبراهيم حنيفا / وأنكر ملتك» ص 60.
«أشطب سيف أبي الوقاص» ص 60.
« في أرض حمورابي الأصل..» ص 27.
– الأماكن: نهر مهروت ص 16 – نهر ديالي ص 16 – خريسانه ص 16 – شواطئ حمدان ص 26 –السراجي ص 26 – درب العشار ص 26 – متحف اللوفر ص –41 الفراتان ص 45 – عرائش حمدان ص 47 – بابل ص 48 – حمام بودابست ص 57 – قبر ابن معروف ص 76 – دجلة ص 80 – البصرة ص 89 – شارع الرشيد ص 92 – العراق ص 104

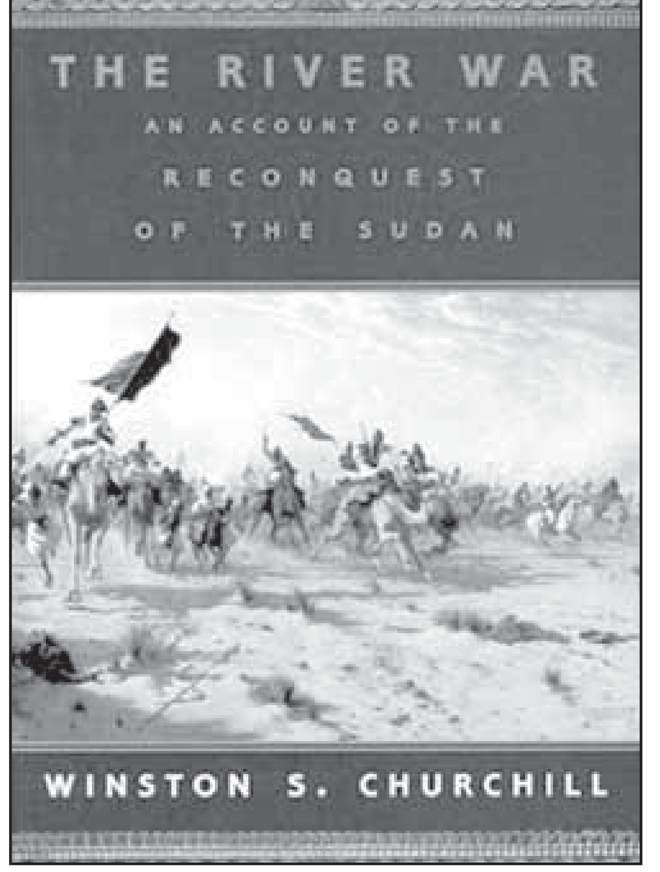
ونسجِّل بخصوص هذه المؤشرات المكانية سطوة الحضور العراقي، وهذا ليس أمرا غريبا فالشاعر ذو أصول عراقية ودماء عربية أصيلة، ولابد أن يحتفي في مكتوبه، سواء عن وعي أو عن غير وعي، بذاكرة الوطن المشحونة بالحنين لأناسه ومواقعه وطفولة ذات قُدِّر لها أن تعيش خارج الحدود. فكان أن رحلت التجربة الشعرية تستقرئ ملامح متراكم هيولي للذكرى الحزينة للوطن البعيد الصارخ أبدا في دماء لا تنسى عذاباتها، والملاحظ أيضا أن هذه المواقع تحمل زخما تاريخيا عميقا كما أشار الشاعر إلى ذلك، وهي كلها تكشف مدى تعلق الشاعر بتاريخ بلاده الحافل بالحضاري الثقافي التاريخي المتعدد الذي لا يموت، رغم ما طال هذه الأماكن والمواقع من دمار وما حاقها من إتلاف وسهو، وهي فوق ذلك تعكس نوستالجيا الذات إلى الوطن الخفي، وحكاياها الهيامية الخفية مع الوطن البعيد الذي لا يتضح شكله سوى في الرؤية والخيال، إذ لم يعد للذات «وهي البعيدة الحزينة الخائبة الكسيرة» من ملاذ سوى أن تعيد صياغة العوالم والعلائق بين هذه الذات نفسها وبين الوطن المغتال، انطلاقا مما تحمل عن وعي هجاسي ومن معرفة استيتيقية وجمالية.

الإحالة الخاصة بالأعلام: ابن مقلة «ص 15» – ابن عفان «ص 16» – حمورابي «27» – بني عامر « 31»– القاسم – حمدان « ص 47»– أبراهام «ص 46 »– إبراهيم– « ص 60 »– أبي الوقاص «ص 60» –عمر الدليمي «ص 62»– لوركا –الحلاج – عبد الكريم قاسم – جواد سليم – فائق حسن»ص 91»– عبد المحسن سعدون – نوري السعيد « 92 » –محمد مهدي البصير – الحصيري – جلجامش» «ص 93» – «أبو جورج – الرصافي» «ص 94»– الجالغي البغدادي «ص 95».

والمستنتج أن هذه الأسامي تدل في معظمها على شخصيات ثقيلة الوزن في الذاكرة العربية سياسيا وثقافيا، ولها أصداء ووقع هام في جسد التراث العربي بل والعالمي أيضا، فحضورها في النصوص يزيدها رسوخا وتميزا، إنها تجعل فعل التلقي مصعَّدا من أدائه، عازفا على أوتار شتى تتداخل حِينا وتتناغم أخرى، لترسم ملامح تجربة ثرة تشغِّل كل مقومات الفكر والشعور الذاتيين، فبخصوص أسامي الأعلام المستلهمة لتخصيب التجربة، تحتاج لكي تُطوِّعَ لخدمة مقروئية شمولية تتعالق مع مكونات التجربة الأخرى، إلى خبرة شاسعة بهذه الشخصيات وتداعياتها تاريخيا وسياسيا وكل ما يلتبس بها من معاني وتفاصيل، حتى يتهيأ للمتلقي استثمار ما يفيد من جوانبها من أجل خدمة الدلالة العامة للنصوص وسبر أغوار الذات السحيقة، وعموما إن الحوارية العميقة التي تصنعها هذه التناصات داخل الملفوظ الشعري تتيح للشاعر أن يستثمر خبراته المعرفية والشعورية والحياتية بما يدعم التلاقحات والتماسات الفنية، وبما يعزِّز الشعور الإنساني في شموليته وكونيته، ويزيد الوهج النصي إشعاعا وفورة وانبثاقا وتميزا، وقد سنحت الظروف الشخصية للشاعر وكثرة اطلاعه على التراثين العربي والإنساني ووفرة ما زاده من التجوال وسعة خبرته بحضارة الغرب ولغاته وتاريخه العريق، في أن تكون التجربة زاخرة بالعطاء لا تنفذ مقروئياتها مهما تعدَّدت وتحاذقت، يقول الدكتور عز الدين يوسف: «أعجبني العبيدي أنه استفاد من حياته في الغرب وأساطيره وتجديده، ولكن جذوره الأصيلة ما زالت تنتشر في طيات شعره (...)

*** ابراهيم الحجري قاص وناقد من المغرب**

رواية تشرشل عن احتلال بريطانيا للسودان
شجاعة السود.. لا تقل اشتعالا عن رصاص بنادقهم



غلاف الكتاب

الكتاب: حرب النهر
المؤلف: وينستون تشرشل
الناشر: دار الشروق، القاهرة
عدد الصفحات: 714 صفحة من القطع الكبير
ترجمة: عز الدين محمود

يحضر الغطاء الاخلاقي الذي يتوسل بالدين قبل بدء المعارك ومنها الحرب الامريكية على أفغانستان 2001 والعراق 2003 كما يتخذ مبررا للحروب بأثر رجعي كما في حالة الاحتلال البريطاني للسودان في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وأعلن الرئيس الامريكي جورج بوش أن الحرب على أفغانستان صليبية جديدة. ورغم قوله ان تصريحه زلة لسان فإن محللين عربا وأمريكيين يرون أنه عبر عن الحقيقة دون أقنعة وهو ما لم يكن رئيس الوزراء البريطاني الاشهر ونستون تشرشل مضطرا له في كتابه «حرب النهر» الزاخر باثار عنصرية تجاه السودان الذي وصف أهله بأنهم «أعداء الله» وان أقر بأن الزعيم محمد أحمد المهدي أعظم أبطال عصره».

ويبدو وصف تشرشل للمهدي جزءا من سلوك المنتصر تجاه بطل عنيد أربك حسابات الامبراطورية البريطانية بعض الوقت حين قاد ثورة أو حركة اجتماعية وعنصرية... قبل عام 1881 لم تكن هناك أي حركات تعصب في السودان مشددا على أن المهدي كان السبب المباشر لحرب بريطانيا على السودان كما يقلل أحيانا من شأن انتصارات المهدي ويرجعها الى تخبط أعدائه.

ويتناول كتاب «حرب النهر» الذي صدرت ترجمته عن دار الشروق بالقاهرة بعنوان «تاريخ الثورة المهدية والاحتلال البريطاني للسودان» السياق التاريخي للبلاد حين كانت خاضعة للسيادة المصرية ومجيء القائد البريطاني تشارلز جوردون ليكون حاكما للسودان –1875 1879 بعد أن سبقته شهرته كقائد لجيش منتصر دائما حيث كانت السمعة الشريرة للسودان تمنع أي ضابط متعلم من الاقدام للخدمة في تلك المناطق النائية.

ويقول المؤلف انه في عام 1883 تجمع أكثر من 40 ألف مقاتل تحت علم المهدي الذي رفض الاستسلام للجنرال هيكس ودارت معارك دمر فيها جيش الغزاة. وقتل كل الضباط الاوروبيين بمن فيهم القائد هيكس. كان مقاتلا اكتسب احترام أعدائه الشرسين وأصبح المهدي سيد السودان.

ولا يقتصر تشرشل في الكتاب على وصف المعارك العسكرية بل يمتد تحليله لما هو أبعد. اذ يرى مثلا: «ان هناك علاقة خاصة بين مصر والسودان الذي يرتبط بمصر عن طريق النيل كالغواص الذي يرتبط بالسطح بأنبوبة الاكسجين. دونها ليس هناك سوى الاختناق.. لا حياة دون النيل».

كما يرسم صورة تشكيلية لجغرافيا السودان قائلا: «ان النيل يجري في الصحراء كخيط من الحرير الازرق يسبح على مجرى بني هائل. وحتى هذا الخيط ينقلب لونه الى بني غامق كل نصف عام»، مشيرا الى أنه «في سرد قصة حرب النهر فإن النيل له اليد الطولى وأنه سبب الحرب ومن خلاله نحارب وهو النهاية التي نرغبها».

ويقع الكتاب في 714 صفحة كبيرة القطع وترجمه السوداني عز الدين محمود الذي أشاد بموهبة تشرشل الادبية واعتبر كتابه درة في جبين الادب الانجليزي لكنه أشار الى وجود روح التشفي والسخرية التي دفعت تشرشل الى عدم التوقف أمام انتصارات رجال المهدي في حين يسهب في وصف انتصارات الغزاة البريطانيين.

ووصف محمود ترجمة الكتاب بأنها عمل وطني مهم لكنه اعترف بحذف أي تعبير قد يشتم منه اساءة لمصر أو السودان ورضيت بأن يقال ان الترجمة غير دقيقة في بعض مواضعها على أن أتهم بأنني أروج اساءات لبلدي». كما شهد بحياد تشرشل في بعض المواقف وانصافه للرجال الشجعان الذين قاتلوا بشرف واستشهدوا بشرف. وأضاف في هامش أن تشرشل قاد احدى الفرق العسكرية أثناء الزحف النهائي على أم درمان عام 1898 ضمن معركة يصفها تشرشل بأنها معركة اعادة الغزو.

وقال السير جون كولفيل مساعد السكرتير الخاص لرئيس الوزراء في عهد تشرشل في مقدمة الكتاب: «ان الروح الاستعمارية لدى تشرشل والتي كانت تشمل مشاعر أبناء ذلك الجيل من بني وطنه في عهد الامبراطورية تظهر بوضوح في هذا الكتاب. ولكن يجب علينا أن نحكم بما كان سائدا ابان العهد الفيكتوري وليس بما هو شائع هذه الايام»، مشيرا الى أنه في تلك الفترة وتحديدا عام 1899 حين كتب «الضابط الصغير تشرشل» هذا الكتاب وهو في الخامسة والعشرين لم يكن يساور بريطانيا أو فرنسا أو بلجيكا أو ايطاليا أو البرتغال أدنى أسف أو تردد في تقسيم افريقيا.

ويحظي تشرشل 1874 – 1965 بمكانة خاصة في بلاده اذ فاز في استطلاع أجرته هيئة الاذاعة البريطانية عام 2002 بلقب أعظم شخصية بريطانية متقدما على الاميرة الراحلة ديانا وتشارلز دارون ووليام شكسبير وعالم الفيزياء والرياضيات اسحق نيوتن والملكة اليزابيث الاولى.

وتولي تشرشل وزارة الداخلية ثم أصبح المسؤول الاول عن سلاح البحرية فوزيرا لشؤون الذخيرة ثم سكرتيرا للمستعمرات ثم وزيرا للخزانة وعين رئيسا للوزراء مع نشوب الحرب العالمية الثانية حيث كون مجلس حرب محتفظا لنفسه بمنصب وزير الدفاع. وبعد انتهاء الحرب هزم في انتخابات عام 1945 وأصبح زعيما للمعارضة ثم عاد الى رئاسة الوزراء بين عامي 1951 و1954 ونال جائزة نوبل في الاداب عام 1953.

ويقول تشرشل في الكتاب: «ان المهدي وضع في قلوب قومه الروح والحياة وحرر بلاده من الحكم الاجنبي. ان بسطاء الناس الغلابة الذين كانوا يعيشون شبه عراة وقوتهم لا يخرج عن كونه بعض الحبوب الجافة، فجأة وجدوا معنى جديدا للحياة بعد أن استطاع المهدي أن يغرس في صدورهم الحس الوطني الجارف والوازع الديني القوي».

ويضيف قائلا: «بعد هزيمة الجيش الغازي عام 1883 ومصرع قائده هيكس قفزت فكرة الاستعانة بالجنرال جوردون الذي وجد نفسه بعد وصوله الى الخرطوم عام 1841 محاطا بحركة وطنية جبارة ومد ثوري ضد كل ما هو أجنبي وأورد يوميات جوردون التي كتب فيها يجد المرء تسلية في تصور هذا المزيج العجيب من البشر الذي يرافق المهدي. أوروبيون قساوسة وراهبات. اغريق وضباط نمساويون..».

وفي يناير كانون الثاني 1885 بدأت معارك يصف فيها تشرشل أنصار المهدي بأنهم العدو الوحشي الذي تسلل الى الخرطوم وذهب بعضهم الى القصر وخرج اليهم جوردون هذا الشخص العظيم الشهير ومندوب مملكة بريطانيا... لم يتمكن من عمل شيء مع جنون الفرحة بالانتصار والاندفاع الديني فقتلوه واستولوا على المدينة ونظرا لقوة العدو المنتصر أجليت القوات البريطانية عن السودان بعد التخلص من المؤن برميها في النيل وأصبح المهدي حاكم السودان ثم تعرض بعد أشهر لمرض أسلمه الى الوفاة.

ويروي تشرشل أن جثة المهدي ظلت في قبر عميق بالغرفة التي توفي بها حتى أمر الجنرال هربرت كتشنر –1850 1916 باخراجها عام 1898 حين دخل أم درمان بعد معارك ثبت فيها أن شجاعة السود لا تقل اشتعالا عن رصاص بنادقهم، ورغم هذا يصفهم تشرشل بأنهم أعداء الله».

ويشير في فصل عنوانه «سنوات التحضير» الى أن أجهزة الاستخبارات البريطانية ظلت عشر سنوات تجمع معلومات عن تاريخ السودان وجغرافيته ومواطنيه وكل ما يتعلق به بما في ذلك الطقس حيث انتشر الجواسيس وسط الجماهير في كل مكان وكانت المعلومة التي يهمس بها هناك تدون في القاهرة حتى أخبار المشاجرات التي لا تنتهي تم تسجيلها بدقة متناهية.